

## بدايات العمارة القروسطية EARLY MEDIEVAL ARCHITECTURE

### العمارة الكارولينغية KAROLINGIAN ARCHITECTURE

#### 1. مقدمة - Introduction

أطلق المؤرخون على المراحل التاريخية التي امتدت ما بين نهاية الامبراطورية الرومانية وحتى بداية عصر النهضة (أي بين عام 400-1400 م) اسم **القرون الوسطى Middle Ages** أو **الفترة القروسطية medieval period** حيث اعتبرت مرحلة تتوسط ما بين العصور القديمة (antiquity) والعصور الحديثة.

حدث في بداية هذه الفترة انقطاع في العمارة والبناء في أوروبا نتيجة عوامل تاريخية عديدة وخاصة بعد انهيار الدولة الرومانية عام 395 م والقضاء على الإمبراطورية الرومانية الغربية على يد الجرمانيين البرابرة بشكل نهائي عام 476 م، أي على يد أقوام وصلت ضمن هجرات متتالية من أوسط آسيا إلى أوروبا ما بين القرنين الرابع والسادس الميلاديين.

وبالتالي فإن الفترة التي ازدهرت فيها العمارة البيزنطية في شرق أوروبا (القرن 6 م) وبدأت بعدها العمارة الإسلامية بالظهور شرق المتوسط وجنوبه في الفترة الأموية (القرن 8 م) والفترة العباسية (القرن 9 م) لم تقابلها عمارة مميزة في غرب أوروبا. إذ تحولت أوروبا في هذه الفترة إلى إقطاعات صغيرة ولم تتوحد مرة أخرى إلا في عهد شارلمان Charlemagne (حكم بين 768-814 م)، الذي توج ملكاً على مملكة الفرنجة Frankish Kingdom وهي منطقة تشمل اليوم فرنسا وأجزاء من ألمانيا وتمتد إلى وسط إيطاليا، ثم توج عام 800 م من قبل البابا ليو الثالث Leo III ليكون إمبراطوراً على الإمبراطورية الرومانية المقدسة Holy Roman Empire، مما شكل ارتباطاً وثيقاً بين الكنيسة في روما وبين السلطة السياسية استمرت فترة طويلة في أوروبا.



مملكة الفرنجة Frankish Kingdom



شارلمان Charlemagne

رافق ذلك تطورات لافتة على صعيد تنظيم الحياة السياسية والدينية والثقافية والاقتصادية، مما انعكس على البناء والعمارة فظهر ما يعرف بالعمارة الكارولينغية Karolingian Architecture نسبة إلى الملك كارل الكبير أو شارلمان.

## 2. العمارة الكارولينغية Karolingian Architecture

حاول شارلمان أن يجعل إمبراطوريته ذات أهمية مماثلة للإمبراطورية البيزنطية وبالتالي اعتمد على التراث المعماري الروماني والبيزنطي لبناء أبنية ضخمة تعد بدايات العمارة الأوروبية في القرون الوسطى.

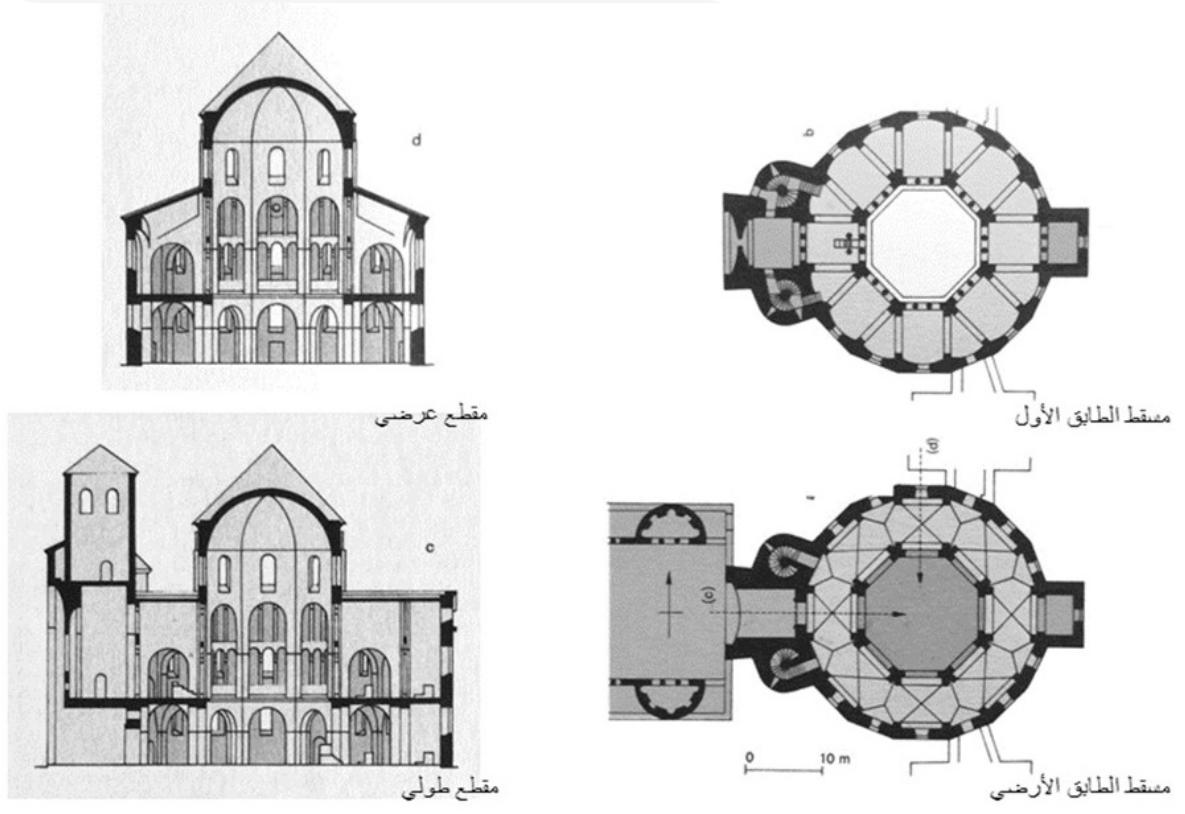
أسلوب حكم شارلمان كان يعتمد على نظام طبقي يقسم المجتمع إلى ملوك أراضي وثم فرسان ورجال دين ورهبان ومن ثم فلاحين يعملون لدى الإقطاعيين وجميعهم يدينون بالولاء للملك. ولم يكن لشارلمان مقر واحد أو عاصمة إذ كان ينتقل من مكان إلى مكان لثبت حكمه، فنتج عن ذلك انتشار واسع للعمارة الكارولينغية، التي ركزت بشكل أساسي على بناء الكنائس والأديرة ومقرات الحكم الامبراطورية Imperial palaces، التي كانت عبارة عن مقرات إدارية تضم كنيسة وقاعة للعرش وقاعة للمجتمعات وقاعة أخرى لإصدار الأحكام القضائية إضافة إلى فراغات خدمية وكانت بضم كلها تعتبر رمزاً للسلطة.

زال معظم هذه الأبنية ومن أشهر الأمثلة التي لا زالت قائمة اليوم هي قصر الحكم Palace complex في مدينة آخن، التي تقع غرب ألمانيا. كان هذا المجمع يضم قاعة عرش hall على شكل بازيليكا رومانية إضافة إلى كنيسة مميزة.

### 1.2. كنيسة القصر في آخن (ألمانيا) أو كاتدرائية آخن - Palatine Chapel, Aachen

تعد الكنيسة التي لا زالت قائمة اليوم جزءاً من مجمع ضخم Palace complex طرأ على تغييرات كثيرة لاحقاً. أمر ببنائها شارلمان وتم البناء ما بين عامي 792-805 م. تصميم المبنى مقتبس من كنيسة سان فيتالي في رافينا.

المبنى ذو تصميم مركزي يعتمد على وجود فراغ مثمن الشكل في المركز ويحيط به رواق على طابقين، يشكل مضلع مكون من 16 ضلعاً جداره الخارجي. الفراغ المركزي مسقوف بقبة مصلبة vault ذات رقبة تختلقها نوافذ علوية للإضاءة. القبة محمولة على ثمان دعامات ضخمة، تربط بينها في الطابق الأرضي أقواس نصف دائريّة بينما يتخلل كل قوس في الطابق العلوي ذو الارتفاع المضاعف عمودان ذوي تيجان كورنثية يحملان أقواس نصف دائريّة (فكرة تناوب الدعامات والأعمدة مستقاة من العمارة البيزنطية). الأعمدة والتيجان هي عناصر معادة الاستخدام مأخوذة من مدينة رافينا لإظهار الارتباط بالفترة الرومانية والبيزنطية، إضافة إلى استخدام الرخام المجدع في إكساء الدعامات.

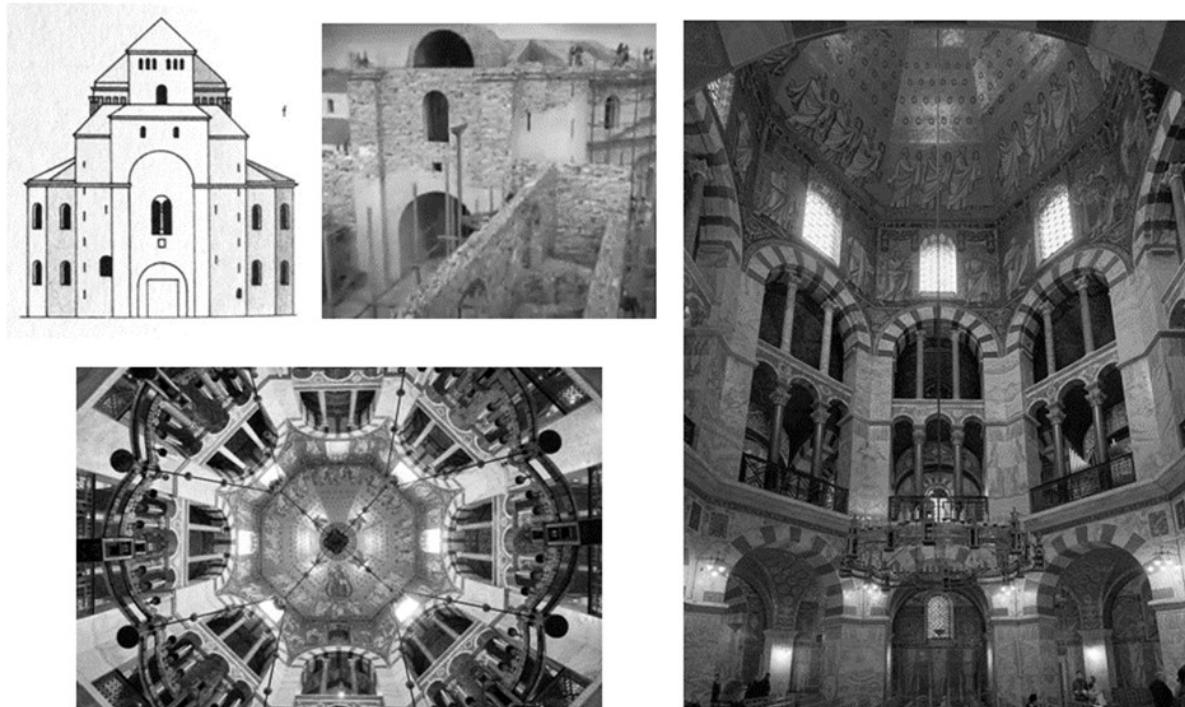


### كنيسة القصر في آخن أو كاتدرائية آخن

كان البناءون على معرفة بتقنيات البناء القديمة لذلك عدوا إلى استخدام القبوسات لتسقيف الأروقة المحيطية وجعلها تتلقي القوى الأفقية من القبة المركزية، حيث نجد قبوسات متصلبة *groin vault* في الطابق الأرضي وقبوسيات أسطوانية *barrel vault* مائلة نحو الخارج في الطابق العلوي تحمل السقف المائل.

رغم مركزية المبنى فإن له محور واضح ناتج عن وجود المحراب *apse* المربع في جهة الشرق في حين يقابلها في الغرب ابتكار كارولينجي هو ما يعرف بالـ *westwork* وهو عبارة عن مجموعة من الفراغات المعمارية تتوضع غرب الكنيسة تشكل الواجهة الغربية للمبنى وتضم به المدخل المحوري إضافة إلى برج أو عدة أبراج. تشمل هذه الكتلة ضمن هذا المبنى مدخل الكنيسة في مستوى الطابق الأرضي، أما في الطابق العلوي، الذي يتم الوصول إليه عبر دراج جانبية، فتعلو المدخل مقصورة الإمبراطور *loggia* التي تؤدي إلى الرواق العلوي *gallery* وإلى العرش ومن هنا كان يمكن لشارلمان وحاشيته أن يتبعوا كافة الفعاليات التي تتم ضمن الكنيسة في الأسفل. يعلو هذه المقصورة برج مرتفع مستقل مربع الشكل كان يستخدم لحفظ الكنوز والآثار التي تذكر بالقديسين *relics* (رفاة).

تظهر وحدة الفكرة التصميمية ما بين الداخل والخارج فالمثمن الداخلي وقبته التي كانت مسقوفة من الخارج بمخروط تبرز في وسط المضلعل الخارجي المنتهي بسقف مائل باتجاه الخارج. وحدها الكتلة الغربية تبدو واضحة أكثر من الخارج وتطغى ببرتها المرتفعة المنتهية بقوس على الصحن الأمامي *atrium* الذي يتقدمها.



كنيسة القصر في آخن أو كاتدرائية آخن: الفراغ المركزي المنسق بقبة - إعادة تصور للواجهة الغربية

ينسب البناء إلى المعمار Odo of Metz ويعتقد أن البناء جاءوا من منطقة لومبارديا شمال إيطاليا، الذين قاموا بإحياء العمارة الحجرية ضمن منطقة لم تستخدمها لخمسة قرون خلت. وتم استقدام مواد البناء والبنائين والفنانين من كامل أنحاء المملكة مما أدى إلى الربط مع المباني البيزنطية الموجودة في شمال إيطاليا ولكن لا يمكن إغفال التجديدات التي تم ابتكارها من حيث التوزيع الذي يناسب وظيفة هذه الكنيسة.

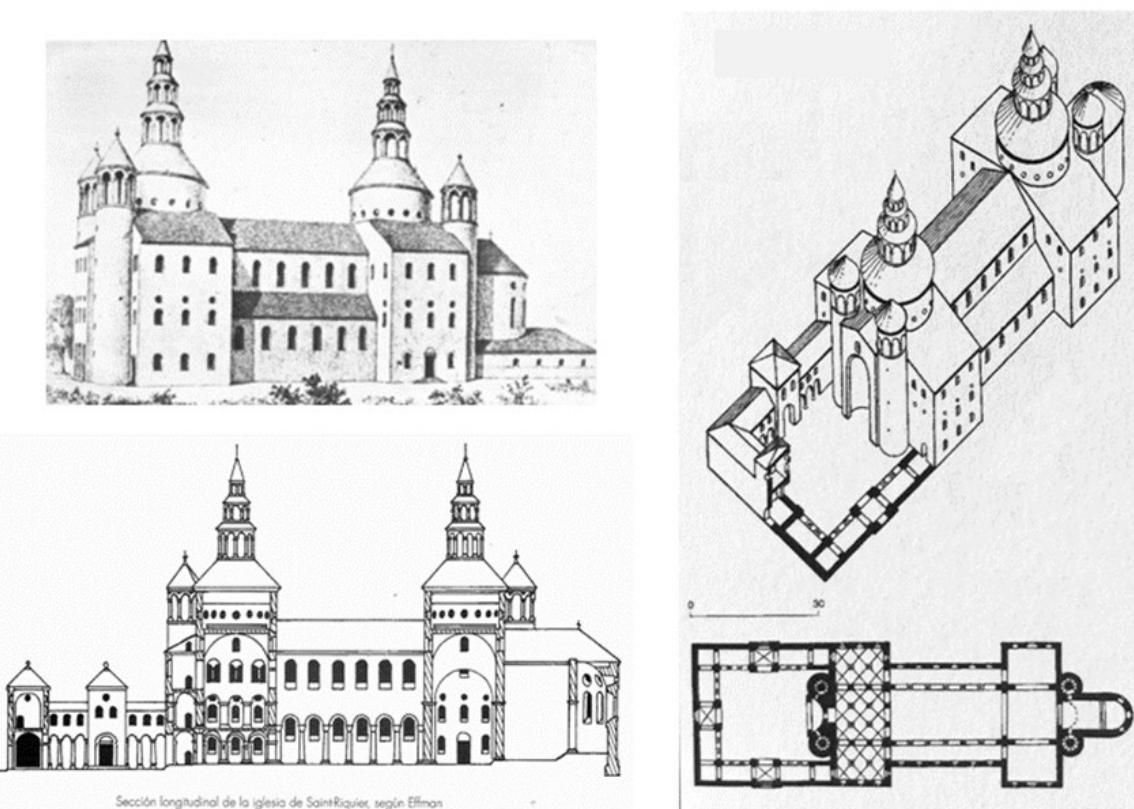
تبقي هذه الكنيسة حالة خاصة ولا تجد تقليداً لها شمال جبال الألب، ولكن استخدم التصميم المركزي في إنشاء مباني المعموديات وخاصة في إيطاليا.

ولكن هناك أبنية أخرى تنتمي إلى الفترة الكارولينجية يمكن من خلالها إيضاح التجديدات التي تميزت بها المباني الكنسية من أهمها كنيسة دير سانت ريكبيه في سينتولا وكنيسة دير كورفاري.

## 2.2. كنيسة دير سانت ريكبيه في سينتولا - Abbey of Saint Riquier, Centula

بنيت كنيسة دير سانت ريكبيه في سينتولا قرب مدينة Amiens في شمال فرنسا ما بين 790-799م، ورغم أنها غير موجودة اليوم ولكن يمكن من خلال إعادة تصورها reconstruction استخلاص نتائج هامة تتعلق بتطور عمارة الكنائس في هذه المرحلة.

المبنى كان عبارة عن بازيليكا مكونة من ثلاثة مجازات تمتد بين كتلتين معماريتين متماثلتين من الخارج هما مجازان transept متعدد الطوابق مع ما يتبعهما من أبراج فوق نقطة التقاطع crossing tower إضافة إلى أبراج الأدراج. تمتد هذه الكتل شرقاً مشكلة المحراب apse الممتد بشكل متراوحاً هنا ليكون كنيسة صغيرة ضمن الكنيسة مخصصة للمرتلين من الرهبان تعرف بالchoir. وتمتد غرباً من خلال كتلة متعددة الطوابق تحول الكتلة الغربية إلى ما يعرف بالwestwork الذي يضم وهو دخول في الطابق الأرضي ويعلوه كنيسة مستقلة متعددة الطوابق. تسيطر هذه الكتلة على الفناء الأمامي Atrium الذي يتقدم المدخل.

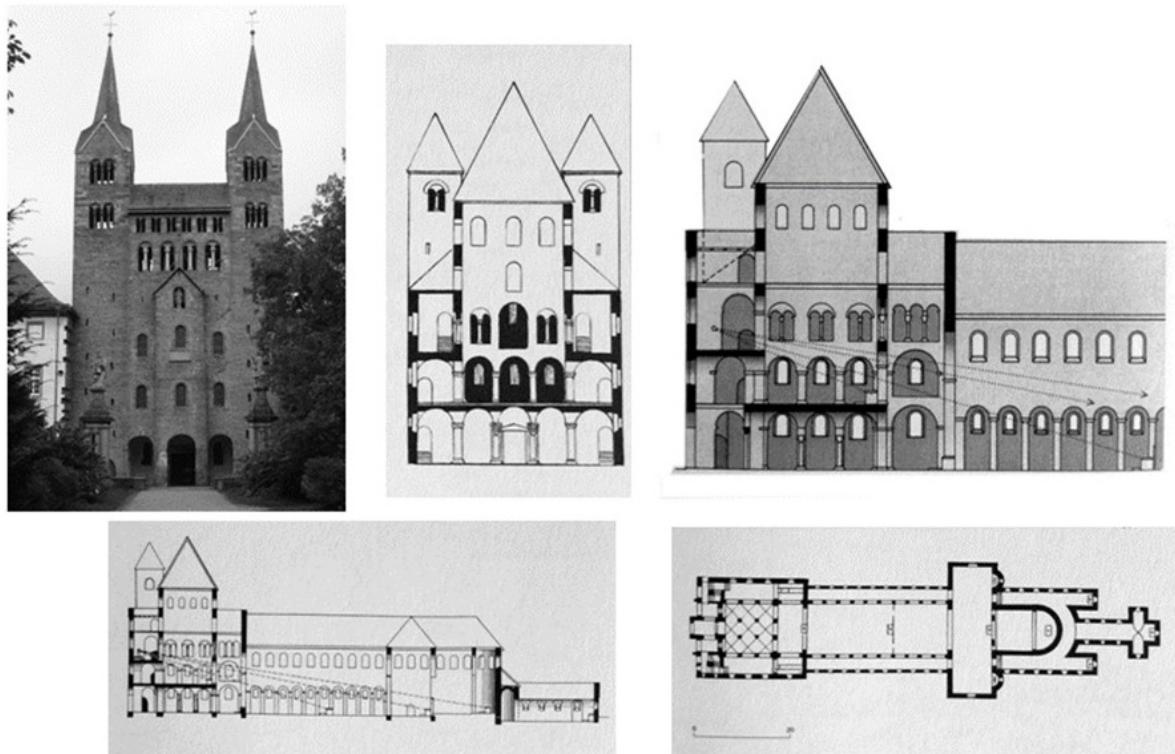


كنيسة دير سانت ريكبيه في سينتولا: إعادة تصور - منظور - مقطع طولي

كان هذا المبنى من أحدث مباني عصره وقد أثر بشكل كبير على عمارة كنائس في الفترة اللاحقة وخاصة في شمال وشرق فرنسا وأيضاً في ألمانيا.

### 3.2. كنيسة دير كورفاي Abbey church at Corvey

تعد كتلة الغربية الـ **westwork** التابعة لكنيسة دير كورفاي في ألمانيا، التي دشنت عام 885 م من الأمثلة النادرة التي لا تزال قائمة على هذا النوع من المنشآت من هذه الفترة. وهي تتكون من ثلاثة أبراج مربعة، برجين جانبيين وبينهما برج مركزي يعلو به الدخول. ترتبط هذه الكتلة من الشرق من خلال قوس مرتفع داخل الكنيسة وتؤمن إطلالة علىهما. علماً أن باقي الكنيسة دمر في مراحل لاحقة وجدد في فترة الباروك.



كنيسة دير كورفاي: كتلة الـ westwork (مقطع طول وعرضي - واجهة) - مسقط للمبنى

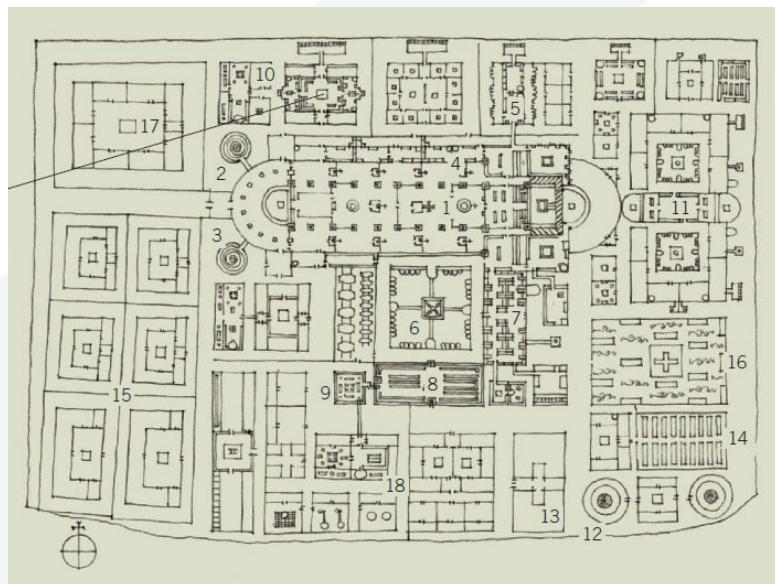
ساهمت هذه الفكرة لاحقاً بانتشار الواجهات الغربية للكنائس المكونة من برجين أماضيين متماثلين وبينهما بشكل محوري مدخل الكنيسة.

### 2.3. الأديرة وأهميتها Monasteries

توالت التجديدات في هذه الفترة وخاصة في العمارة الكنسية وعمارة الأديرة التي انتشرت بسرعة. حيث قام شارلمان بالعودة إلى تعليمات الرهبنة التي وضعها القديس بينيديكت Saint Benedict في القرن 6 م. وشجع على انتشار الأديرة Monasteries في المناطق الريفية كونها تساهم في تثبيت استيطان القرى إضافة إلى مهامها الروحية في نشر الديانة

المسيحية ووظيفتها التعليمية إذ كانت المدارس الوحيدة الموجودة وقتها ضمن الأديرة. فنشأت آلاف الأديرة في القرون الوسطى، مما جعل لها أهمية كبيرة في تطور العمارة في هذه المرحلة.

زالت معظم الأديرة التي أقيمت في الفترة الكارولينغية أو طرأت عليها تعديلات كثيرة ولذلك يعد العثور على مخطط دير سانت غال في سويسرا **Plan of St. Gall**, الذي يُؤرخ بحوالي عام 820م، مهما لفهم التطور في توزيع الفعاليات المختلفة المكونة للدير والفصل بينها إضافة إلى إيضاح نماذج البناء المستخدمة حينها.<sup>1</sup>



مخطط دير سانت غال

1. Church
2. Tower of St. Michael
3. Tower of St. Gabriel
4. Guest lodgings
5. Abbot's house
6. Cloister
7. Monks' dormitory
8. Monks' refectory
9. Kitchen
10. Brew house
11. Novitiate and infirmary
12. Henhouse
13. Granary
14. Monks' garden
15. Monks' orchard and cemetery
16. Sheep, goats, and cows
17. Unknown function
18. Workshops

يضم المخطط حوالي 50 مبنى مع تسمياتها، أدقها بالرسم كنائسة الدير، التي تتوسط المجمع تقريباً، وهي ذات مسقط بازيليكي (apse) إضافة إلى وجود محابين (cloister) الأول في الشرق يقابل الثاني في الغرب. يرتبط بالكنيسة جنوباً منطقة مغلقة - مخصصة للرهبان فقط - تعرف بالـ refectory وهي تضم رواقاً محيطاً بصحن مربع (حديقة داخلية) تفتح عليه قاعة النوم (dormitory) وقاعة الطعام (refectory) وتلحق بها أيضاً دورات مياه وحمام ومطبخ. أما باقي المباني فتتوزع حول هذا المركز حسب وظيفتها، فشمال المجمع نجد سكن رئيس الدير والمدرسة والمكتبة وفي جهة الشرق يتوضع المشفى (مع مبني ملحقة) وبني مخصص للرهبان الجدد إضافة إلى حدائق (غالباً للأعشاب الطبية)، كما يوجد مقبرة. يتبع لها في الغرب والجنوب الغربي عدد كبير من المباني ذات الطبيعة الاقتصادية مثل مبني فرن وأخر لتصنيع البيرة ومطحنة ومعصرة وغيرها من الورشات الحرفية والحظائر.

يعتقد أن مثل هذه الأديرة كانت تضم ما يزيد عن 100 راهب مع 200 من العمال والخدم التابعين لهم. وكانت تشكل مركز إشعاع ديني وعلمي واقتصادي. لم يكن هذا المخطط معداً للبناء الفعلي إنما يعد فكرة تصميمية أي فكرة مثالية لتوزع المنشآت التي كانت تتكون منها الأديرة.

### خلاصة العمارة الكارولينغية

تتميز العمارة الكارولينغية بالعودة إلى التأثر بالعمارة الرومانية والبيزنطية من حيث اعتماد التصميم المركزي أو التصميم المحوري البازيليكالي في بناء الكنائس. وكذلك العودة إلى استخدام الحجر كمادة للبناء في أوروبا شمال الألب إضافة إلى بعض تقنيات البناء القديمة مثل بناء الأقواس والقبوالت المختلفة للتسقيف. إضافة إلى تقليد الزخارف المعمارية والعناصر التزيينية ولكن كل ذلك من خلال تحويل هذه العناصر.

ولكن رافق ذلك ابتكار عناصر فراغية جديدة وفقاً لاحتياجات هذه المرحلة منها مثلاً *westwork* ككتلة واضحة غرب الكنائس إضافة إلى الأبراج والمساقط ذات المحرابين المتقابلين في الشرق والغرب.